الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٦ —

سامكهيا:

عاش الحكيم « كابيلا » مؤسس هذا المذهب فى القرن السادس قبل المسيح كما يظن أكثر الباحثين المدققين. وقد نشأ هذا الظن عندهم من أن أقدم النصوص التى تحدثت عنه وعن مذهبه ترجع إلى القرن الخامس قبل المسيح، وأنه قد عثر فى هذا المذهب وفي المذهب البوذى على تأثرات قوية متبادلة بين المذهبين بالتساوى مما يدل على أنهما متعاصران تقريباً لاسيما إذا كان بعض تلك النقط التشابهة واضح الأصلية فى أحدهما والحداثة فى الثانى، والبعض الآخر على العكس من ذلك تماماً.

بعض اللآلىء، فهم أشبه بنوع من الجار المنع بأصدافه، ولكم وجدت فى داخلهم بدل الروح شيئاً من الرغوة المالحة. إن الشعراء يقتبسون من البحر غروره، وهل البحر إلا أشد الطواويس غروراً؟ فهو حتى أمام أقبح الجواميس يدحرج أمواجه ويبسط أطالس مراوحه وأطراف وشاحه المفضض فيحدجه الجاموس بنظرات الغيظ لأن روحه القترية من الشاطىء لا تزال ملتصقة بعلفه ومرعاه فما يبالى بالجمال وبالبحر وببهاء الطواويس. هذا هو المثل الذى أضربه للشعراء. والحق أن فكرهم لطاووس مغرور بل هو بحر من الغرور، ففكر الشاعر يطلب مَنْ يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموسا.

لقد أتعبنى هذا الفكر وسوف يأتى زمان — وهو قريب — يتعب فيه هذا الفكر من ذاته.

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر ويوجهون النقمة إلى ما كانوا عليه، ورأيت من يقدّمون كفّارة للفكر، وما نشأ هؤلاء المكفّرون عن الضلال إلا بين الشعراء.

هكذا تكلم زارا ....

سمى هذا المذهب بـ « سامكهيا » لقوله بالتعدد الذى لا يتناهي فى النفوس، وهو على الأصح مذهب إلحادى لا يقول بإله مسيطر متصرف فى الكون، وهذه إحدى النقط التى يلتقى فيها مع البوذية التى صورتها لنا نصوص العصر الذى تلا عصر « بوذا » وبعبارة أدق: لعلها إحدى النقط التى تأثرت فيها البوذية بعد موت زعيمها بمذهب « سامكهيا » الإلحادى الذى لا يشك باحث في أن الالحاد متأصل فيه.

يرى صاحب هذا المذهب أنه لا يوجد للكون إله قدير منفرد بالتصرف فيه، وإنما يرى أن هناك روحا عاماً أو عالماً من الأرواح غير محدود ولا متناه، متشابه الوحدات، وأن هذه الوحدات بتكاثفها مع المادة هي التى تحدث فى الكون هذه الآثار وتلك التغيرات على النحو الذى يفصله فيما بعد، وهو يرى كذلك وجود عالمين هما فى الحقيقة والأزلية والأبدية سواء. وهما: النفس، وتسمى بالهندية: « پوروشا » والمادة، وتسمى: « پراكريتى ». وهذان العالمان لا يتفقان فى أى شيء آخر عدا الحقيقة والأزلية والأبدية. ومع ذلك، فان بينهما صلة قوية، لأن مجاورة النفس للمادة هي التى تكسبها الحركة التى هى منشأ كل النتائج الصادرة عنها، ولكن النفس وحدها لا تستطيع أن تفعل شيئاً وإن كانت حية مشتملة بالقوة على جميع عناصر القدرة التأثيرية، وهى مبصرة ولكنها عاجزة على عكس المادة العمياء المشتملة على قدرة كامنة يستحيل بروزها من غير اتصالها بالنفس، وهم لهذا يشبهون اتحادها باتصال مقعد وأعمى التقيا فى صحراء، فاتفقا على تعاون عملى بينهما يضمن لهما النجاة، وهو أن يحمل الأعمى المقعد على كتفيه، ليمكنه من السير فى مقابل أن يدله المقعد بوساطة بصره على الطريق الذى لم يكن فى مكنته أن يعرفه لولا معاونة رفيقه، وقد وصلا معاً إلى شاطىء النجاة بفضل هذا التعاون العظيم. وهكذا شأن النفس مع المادة هيأ لهما اتحادهما إبراز خواصهما التى لم تكن لتوجد بدون هذا الاتحاد.

وللمادة ثلاث صفات ملازمة لها، وهى الخيرية والهوى والظلمة، وإن هذه الصفات تظل تتفاعل فيما بينها في عصور مختلفة حتى تصل إلى حالة الاعتدال التى تسوي بينها، فإذا وصلت إلى هذه الحالة تتطورت تطوراً آخر جديداً نشأت عنه الطبيعة، وبارتباط النفس والمادة المتطورة والطبيعة الناشئة عن هذا التطور يوجد هذا العالم المشاهد. غير أن هذه النظرية لم تلبث أن تلاشت

طت محلها نظرية أخرى على العكس منها تماماً ، إذا أصبحت رة الارتباط الحقيقي بين النفس والمادة لاوجود لها ، وإنما بح الرأى السائد هو أن النفس تجتمع مع المادة اجتماعاً مؤقتاً ، اسه الضرورة التي تتطلبها الحياة الدنيوية ، ثم لا تلبث هذه رورة أن تزول فتتخلص النفس من هذه الصلة المقيدة لها ثم لق إلى عالم الأبدية الأعلى حيث تنام بلا نهاية نوما عميقاً هادئاً زعجه الرؤى ولا تنغصه الأحلام .

ويرى كذلك أن الشر فى هذا العالم موجود وجوداً ذاتياً ه لا يقدر على محوه إلا بوساطة العمل الصالح والتخلى عن ع اللذائذ والتأمل فى أسرار الكون ، وعلى الخصوص بالمعرفة ، هى الغاية المثلى من جميع هذه المحاولات المتقدمة .

وهم للحصول على هذا الخلاص المنشود يغالون فى التصوف لاة شديدة حتى ليجلس الواحد منهم على شاطىء أحد الغدران ة أعوام طويلة دون أن يغادر مكانه ، ويقتات بالأعشاب ويديم كر فى أسرار الكون ، ولا يزال يغالب نفسه حتى ينتزعها يأ من دنس المادة ، وقد تصل به الحالة أثناء هذا التنسك إلى يصير جسمه نصف متحجر وتنبت فيه الحشائش وتلتف ه الأغصان .

ومع ذلك فسوف لا يعم هذا الخلاص جميع النفوس البشرية ا سيبقى منها عدد غير متناه ساقطاً فى أحابيل الشر مسجوناً يابات الأجسام المادية ، لأنه مهما اقتطع من اللامتناهي عدد ب إلى الخلاص ، فان ذلك الاقتطاع لا يؤثر فيه ولا يخرجه صفة اللانهائية لا سيما إذا عرف أن الأصل هو الشر أو حباس فى سجن المادة ، وأن التخليص عارض ، ولكن أنجع سائل إلى هذا التخليص هو معرفة القوي الكونية الخمس شرين ودوام التفكير فيها . ولذلك يقول «پاس ابن پراشن» : ن الخمسة والعشرين بالتفصيل والتحديد والتقسيم معرفة ان وإيقان ، لا دراسة باللسان ، ثم الزم أى دين شئت فان ك النجاة . . .

وهذه القوى الخمس والعشرون هي : النفس الكلية والهيولى دة ، والمادة المتصورة ، والطبيعة الغالبة ، والعناصر الرئيسية : السماء والريح والنار والماء والأرض ، وتسمي « مهابوت » مهات التي هى بسائط العناصر ، فبسيط السماء « شبد » وهو المسموع وبسيط الريح « سپرس » وهو الملموس . وبسيط النار « روپ » وهو المبصر . وبسيط الماء « رس » وهو الذوق ، وبسيط الأرض « كند » وهو المشموم . ولكل واحدة من هذه البسائط ما نسب إليه وجميع ما نسب إلى ما فوقه . فللأرض الكيفيات الخمس ، والماء ينقص عنها بالشم ، والنار تنقص عنها به وبالذوق ، والريح بهما وباللون ، والسماء بها وباللمس . ولعلهم فى نسبتهم الصوت إلى السماء يقصدون به أن لدوران الكواكب في أفلاكها تلك اللحون الموسيقية التي زعم « فيثاغورس » أن سماعها يتاح لكل من صفت نفسه ولطف حسه . والحواس المدركة ، وهى : السمع والبصر والشم والذوق واللمس والارادة المصرفة والضروريات الآلية . واسم الجملة : « تتو » والمعارف مقصورة عليها (١)

أما الانسان فهو عند هذا المذهب معقد تعقيداً يلفت النظر ، إذ هو مكون من ثلاث شخصيات مختلفة : الأولى الجسم المادي الذى ينحل ويتفكك بالموت ثم تتلاشى أجزاؤه فى أصولها الناشئة عنها من عناصر المادة . الثانية جسم دقيق شفاف ، وهو الذى يعتبر فى الحقيقة الجوهر الصحيح للانسان ، وهو الذى يتناسخ ويتقمص الأجسام الأخرى . الثالثة النفس التي هى الواحد الحق المماثل كل المماثلة لجميع الآحاد الحقة التي هى من عالمه النفسانى الغير المتناهى .

ويرى هذا المذهب أيضا أن الحواس الإنسانية لم توجد اتفاقاً ولا عبثاً ، وإنما وجدت وفاقاً لعناصر الكون ، فكل حاسة من حواس الانسان يقابلها عنصر من عناصر الطبيعة يصلح لأن تقع عليه هذه الحاسة بالذات كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الديانة البراهمانية .

وليس هذا التعقيد فى شخصيات الانسان مقصوراً على مذهب « سامكهيا » وحده ، وإنما هو أسلوب هندى عام اشتركت فيه أكثر مذاهب تلك البلاد . بل إن غير « سامكهيا » قد يصل بهذه الشخصيات إلى أربع أو سبع أو عشر حسب الظروف والأحوال .

« يتبع » محمد غلوب

(١) أنظر صفحتى ٢١ ، ٢٢ من كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة » للبيرونى .